

جعل القطار يسير الهوينيا . ويمشي بنا مشيا وتيدا لأننا في رخو خضخاض من الأرض لنا يحسن عليه السير السريع . فكلما بلغ القطار هذه «المرجحة» غاديا أو راثحا لما وخفض السائق من سرعته وكبح من جماحه وأحس الركاب بأن سرعة القطار قد انخفضت كثيرا ، فقال قائل منهم : هذه الكرامة . حتى القطار قد أدركته الخشية ، فجعل يسير هذا السير المخاشع احتراما لسيدي عابد ، واعتراضا بولايته وصلاحه (!) فقال قائل آخر : وليست هذه هي الكرامة الوحيدة لهذا الولي الصالح فمن كراماته المشهورة أنك لنا تسمع مدة هذه «الزيارة» نهيق حمار ، ولما صهيل جواد ، ومنها أن من سرق شيئا صار في يده ثعبانا مهينا أو حية تسعى ومن كراماته أننا معشر الرجال نستمتع في أيام «الزيارة» بالأوانس والمنساء الجميلات من رببات الحجال المقصورات في المخيام ن شاهد فيهن الجمال البديع سافرا مجردا دون برقع أو حجاب ونتحدث إليهن في مختلف الأحاديث دون كلفة ولما احتشام ، ونخلو بهن في غير ريبة ولما «اشتباه» على أن أحدا لنا يمد يده إلى امرأة بسوء ، وإذا تلاقيا على خطيئة أو إثم «تلاصقا» إلى الأبد !

فقال قائل : ولكنني أنا قد أجريت بنفسني عدة تجارب من هذا النوع فوجدت أن هذا الاعتقاد باطل غير صحيح وأن الحقيقة على خلاف ما يزعمون وما لي حاجة في هذه (الزيارة) إنما اغتنام الفرصة لإتمام هذه التجارب ! فقال آخر : وأنا أيضا لا أشهد هذه «الزيارة» إنما طلبا للصيد ! ولعل جميع هؤلاء «الزوار» نساء ورجالا إن ما يجيئون هذه «الزيارة» حبا في الماصطياذ ! فقال له أحد الحاضرين : اتق الله يا هذا ، ولما تجعل المصلحين كالمفسدين ، ولما المتقين كالفجار ، ففي هؤلاء الزوار من يحملون بين جوانبهم أحسن «النيات» وأطيبها وفيهم العلماء الأعلام الذين قد أتوا «زائرين» ، فقال له صاحبه : ومن هو العالم الذي جاء «زائرا» ؟ قال : قد رأيت المشيخ الزاهري ركب معنا هذه العربة ، وعلمت أنه جاء «زائرا» وهذه حجة على جواز «الزيارة» فالمشيخ الزاهري عالم مشهور ينبغي أن نقلده ونقلد إخوانه من العلماء في أمور ديننا (وهو إن ما يعتبر التقليد في الزيارة) وقديما قيل : (من قلد عالما لقي الله سالما) وما نظن أن الزاهري قد جاء بنية أخرى إنما أن «يزور» . فقال له صاحبه : الزاهري ليس حجة في هذا الباب ، لأنه من الذين يذكرون الزيارة ولما يبيحونها ، وما هو هنا إلا بنية أن يطالع علي ما يجري وما يكون ثم يكتب عن هذه الزيارة ما لا يسر الزائرين ولما الزائرات ، وبعد فمأذا عسى أن يكون المشيخ ؟ إنه لم يكن ملكا كريما ولما نبيا معصوما ، فلماذا لا يجوز أن يكون هو الآخر مثلنا من الهواة المغمغمين بالصيد ؟ فقال له الرجل : لا ينبغي أن نقول مثل هذا القول في رجل ما علمنا عليه إلا خيرا ، وما علمنا عليه من سوء ، وهنا دارت بين الرجل وصاحبه حاوره شديدة عنيفة ، فيها فكاكة لاذعة ، وتهكم مرير ، وفيها حلوة وظرف كثير ، ولكن هذا المقام يضطرنا أن نطويها وأن لا نذكرها هنا .

وأطل أحد الركاب من نافذة القطار . ونادانا : تعالوا فانظروا ، فتزاحمنا نحن جميعا على النواضد نطل منها برؤوسنا ، فإذا الأرض تسيل بالمسيارات والعربات المختلفة والدراجات والمكايونات والمكارويات وبالخيل والبغال والحمير تحمل إلى مكان «الزيارة» النساء والرجال والأطفال من الزائرين والزائرات ، فقلت أي مكان يتسع لهذه الخلائق مهما كان واسعا فسيحا ، فقال لي رجل كان بجانبني : ما هؤلاء إلا شيء قليل جدا بالنسبة للذين هم الآن في مكان الزيارة ، ففي كل ربع ساعة يصل إلى عين كرمين قطار مشحون بالزوار ، فقلت : كم يبلغ عدد هؤلاء الزوار جميعا ؟ قال : إنهم يبلغون ثلاثمائة ألف أو يزيدون ، فقلت : وكم نسبة النساء بينهم ؟ قال : إنهن سبعون بالمائة أو أكثر من ذلك بقليل ، قلت : وما لي أراهن سافرات غير محجبات ؟ قال : لأنهن زائرات ، قلت : إنهن ما زلن لم يصلن مكان الزيارة بعد ؟ قال : قد اعتبرن أنفسهن زائرات منذ خرجن من بيوتهن .

□ □ □ □ □ ونزلنا بمحطة عين كرمان . ويُسَمُّونها << وادي ارهيو >> ومع أن بينها وبين مكان الزيارة بضعة أميال فإن كثيرا من الزوار — لم يعلموا أن مكان الزيارة قد ضايق بالزائرين — قد اتخذوا من عين كرمان مكانا للزيارة . ونصبوا بها الأخبية والخيام . وكانت شوارعها وميادينها تموج موجا بالمنساء والرجال . وكانوا مُختلطين اختلاطا فاحشا . وقد رأينا حلقا كثيرة كحلق الذكر . فلما دنونا منها رأينا المنساء وهن سافرات قد جلسن بين الرجال وربما ترامت امرأة في أحضان رجل أجنبي عنها تلاعبه ويُلعبها وتُغازله ويغازلها على مرأى ومسمع من الناس . . . وفي كل حلقة راقصة تشب وتميس . وتخطر وتمشي . . . وربما كن أكثر من راقصة واحدة وهذه الراقصة هي محور هذه الحلقة فإذا هي قد قضت لبانيتها من هذه الحلقة وثبت منها كالغزال النافر إلى حلقة أخرى تبعها أصحاب الحلقة جميعا .

□ □ □ □ □ وأردنا أن نُصَلِّي الظَّهر فقلت لرفيقي وهو الأخ المفاضل السيد علي سعد الهاشمي (بوشقور) هلم بنا إلى المسجد . وقمنا نسأل عنه الغادي والرائح فلم نجد من يدلنا عليه بل قال لنا أحد الناس مُتهكِّما : إنكم تركتم المسجد وراءكم في وهران ! وسألنا عنه رجلا من أهل القرية فاستغرب من هذا السؤال .

□ وكانت المسيرات التي تقل الزوار إلى مكان الزيارة كثيرة لا تكاد تحصى . ومع ذلك فإننا اضطررنا أن ننتظر قليلا من كثرة المازدحام على المسيرات . والتمسنا مراحا نستريح إليه فلم نجد . لأن المقاهي العربية كانت غاصة ملأى بالزائرين والزائرات . حتى لا ترى فيها موضع قدم خاليا . وقصدنا إلى أحد المقاهي الفرنجية المكبرى ظنا منا أن الزوار لا يقصدون إلى مثلها . فإذا هي كثير الردهات والأبهاء ولكن كانت كلها مكتظة بالزائرين والزائرات . وبعد لأي شديد وجهد جهيد . انتبذنا مكانا قصي إلى مائدة صغيرة في زاوية ضيقة من زوايا المقهى فجلس صاحبي على شيء يشبه الكرسي . وما هو به . وجلست أنا على كرسي مُحطَّم قديم قد بلغ من الكبر عتيا وقام على ثلاث قوائم فقط . أم القائمة الرابعة فقد ذهب بها الأيام . وكان الدخان دخان << المس جائر >> قد نشر في جو المقهى سحبا كثيفة متراكما بعضها فوق بعض . ونادينا صاحب المقهى أن ائتنا بعصير الليمون . فهز كتفيه استخفافا بما طلبنا . وكان يظن أننا نشرب جرة كبيرة من جرار المجعة (البيرة) كسائر الزوار فيتمتع هو بثمنها . ومضى . ولم يكد يصل إلى المصطبة (الكونتوار) حتى غاب عن أبصارنا في ضباب الدخان المتصاعد من سائر الأفواه . وبعد عشرين دقيقة جاءنا بعصير الليمون وقال لنا أي نوع من أنواع الدخان تريدون ؟ قلنا إننا لا نتعاطى التدخين . فزاد استخفافه بنا . وكان قد جلس إلى كل مائدة جماعة من الزوار ذكورا وإناثا يتبارون في شرب المخمور ويتنافسون . وكانت المرأة تغني والرجل ينفخ << قصبته >> أو مزماره والمباقي يصيحون ويصفقون ويُمعنون في العريضة والمعبث . وربما رأينا بأعيننا رجلا قد تهافت على امرأة وسط الجماعة يغازلها ويغمرها عضا وتقبيلا . وقمت أنا إلى حديقة المقهى لعلِّي أرى مكانا نجلس إليه فإذا الحديقة أكثر امتلاء بالمشاربين والمشاربات وإذا الحالة فيها على غرار الحالة في المقهى .

وهران محمد السعيد الزاهري (المصراط السوي العدد الثاني عشر)